حكيم بنى أمية

خالد بن يزيد بن معاوية

بقلم : الدكتور على عبد الله الدفاع

هو خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وأمه أم هاشم بنت عتبة بن ربيعة بن عبد مناف ، عاش فيما بين عامى ١٣ و٨٥هـ . « ٦٣٥ ـ ٧٠٤ م » . وهو الذى جعل لعلم الكيمياء مكانته بين العلوم الأخرى ، وقد كانت فى مرتبة متدنية بين العلوم : حيث كان تعلمها آنذاك أمرا لا يليق بالحكماء والسادة ، بل كانت من العلوم التى تدرس فى الأدوار السفلى فى المدارس القديمة ، ولكن صار لها بفضل خالد ابن يزيد بن معاوية شأن عظيم ؛ فهو فى الحقيقة قد اهتدى بهدى جده معاوية بن أبى سفيان الذى فتح بابه على مصراعيه للعلماء ليتدارسوا المشكلات العلمية .

يقول أحمد الدمرداش فى كتابه (تاريخ العلوم عند العرب) قبيل انتشار المدارس كانت حلقات العلم لا تعقد فى أمكنة من طراز واحد : بل تعقد فى أمكنة مختلفة كالمساجد وقصور الخلفاء والأمراء ، ومنازل العلماء والمكتبات ، وكان الخلفاء يعدون أنفسهم حماة للعلم ، ويرون أن قصورهم يجب أن تكون مركزا تشع منه الثقافة والعرفان ، بدأت بقصر معاوية بن أبى سفيان الخليفة الأموى الأول ، ثم خالد بن يزيد بن معاوية المؤسس الأول لعلم الكيمياء عند العرب .

أما حاجى خليفة فيقول فى كتابه (كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون) أول من تكلم عن علم الكيمياء ووضع فيها الكتب ، وبيّن صنعة الأكسير والميزان،ونظر فى كتب الفلاسفة من أهل الاسلام خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان . وأول من اشتهر هذا العلم عنه جابر بن حيان الصوفى من تلامذة خالد كما قيل :

حكمة أورثناها جابر   عن إمام صادق القول وفى

ووقد امتدح فاضل أحمد الطائى فى كتابه (أعلام العرب فى الكيمياء) خالد بن يزيد بن معاوية كنابغة فى الكيمياء والأدب العربى .

إن التاريخ الاسلامى ليشهد للأمير خالد بن يزيد بن معاوية بمقدرته العلمية والقيادية ، ولكن الحظ لم يحالفه بأن يتولى القيادة . فقد حاول محاولات قليلة لتولىّ زمام الأمور فى الدولة الاسلامية ، دون أن يحرز نجاحا . أراد كثير من أصدقائه وأقاربه تشجيعه ليتولى مقاليد حكم بنى أمية بالقوة ، ولكنه رفض،لوجود مروان بن الحكم الذى عرف برجاحة عقله ، وهو فى ذلك الوقت أكبر بنى أمية سنا . وقد لخص سعيد الديوه جى فى كتابه (الأمير خالد بن يزيد) الموقف بقوله : انقسمت الأمة الإسلامية إلى ثلاثة أحزاب بعد وفاة يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هجرية (٦٨٤ ميلادية) :

١ ـ حزب عبدالله بن الزبير وكان يرى نفسه أولى بالخلافة ، حيث كان يحكم الحجاز وامتد سلطانه إلى سوريا ومصر ، وتعداها إلى العراق وخراسان .

٢ ـ حزب مروان بن الحكم : وكان يرى أنصاره أنه ما أحد أولى بهذا المنصب منه ، إنه لكبير قريش وشيخها ، وأرجحها عقلا وكمالا ودينا وفضلا .

٣ ـ حزب خالد بن يزيد يؤازره أخواله ، من بنى كلب ومعه الأردن وطبرية ، ويرى أنصاره أنه من معدن الملك ، ومقر السياسة والرياسة . جده معاوية مؤسس الدولة الأموية وأحد دهاة العرب المعدودين ، ولخالد عقل وفضل ، لكنه دون الحلُم .

وقد رأى بنو أمية وأنصارهم خطورة الموقف ، وأن حزب عبدالله بن الزبير سينجح إذا لم يتفق بنو

أمية ويلتفوا حول بعضهم . وفى آخر الأمر رأوا أن يتولى مقاليد الحكم مروان بن الحكم ويخلفه خالد ابن يزيد . ولكن عندما تولى الخلافة مروان بن الحكم حصرها فى أبنائه . وانقطعت أسرة آل أبى سفيان عن الخلافة . يقول سعيد الديوه جى فى كتابه السابق : (وانتقلت الخلافة من أسرة آل أبى سفيان إلى أبناء الحكم . وأن مروان بن الحكم نكث العهد . وحصرها فى اولاده . فجعلها فى ابنه عبد الملك ومن بعده إلى ابنه عبد العزيز . وعمل خالد شتى الحيل لاسترجاع الخلافة إلى الفرع السفيانى . وكان نصيبه الفشل . والمتتبع لحياته يجد علائم الذكاء والاعتداد بالنفس والتزعم . كانت تظهر فى أقواله وأفعاله منذ صغره . وقد أجمع الذين ترجموا له أنه كان من رجال قريش المعدودين علما وفضلا ولكن الأقدار تعدته .

عندما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان بن الحكم . بدأ الخوف على الأمة الاسلامية ينمو فى تفكير خالد بن يزيد : لأن عبد الملك عُرف بتسلّطه بسيفه ولسانه . فصار خالد بن يزيد يعقد صداقة مع المعارضين لعبد الملك وحكمه . فعلى سبيل المثال تزوج خالد برملة بنت الزبير . فحاول عبد الملك أن يحول بين خالد ورملة ولكنه فشل . يقول سعيد الديوه جى فى كتابه (الأمير خالد بن يزيد) : إن النزاع السياسى لخالد كان هادئا . فإنه لم يُرق ـ فى سبيل ذلك ـ دما . فقد استعاض عن السنان باللسان . لأنه يعلم حق العلم أن الناس مع القوى . وأنه لا يمكن أن يستميلهم إليه . طالما سيوفهم مع الخليفة . الذى لا يتأخر عن ذبح أقرب الناس إليه فى سبيل توطيد الملك . والذى هدد الناس بقوله : من قال لى اتق الله ـ بعد موقعى هذا ـ ضربت عنقه)،ولذا فإن خالدا لم يقم بثورة . وكان آل أبى سفيان يستفزونه فى كل مناسبة . ويحاولون أن يحركوه على القيام بحركة فعالة ولكن بدون جدوى .

أما موضوع زواج الأمير خالد بن يزيد من رملة بنت الزبير فهى فى الحقيقة أسطورة غريبة نقلها سعيد الديوه جى فى كتابه (خالد بن يزيد) وهى : حج عبد الملك بن مروان . ومعه خالد بن يزيد ابن معاوية . كان هذا من رجال قريش المعدودين . وكان عظيم القدر عند عبد الملك . فبينما هو يطوف بالبيت . إذ بصر برملة بنت الزبير بن العوام . فعشقها عشقا شديدا ووقعت بقلبه وقوعا متمكنا . فلما أراد عبد الملك القفول هم خالد بالتخلف عنه . فوقع بقلب عبد الملك تهمة . فبعث إليه فسأله عن أمره . فقال : يا أمير المؤمنين . رملة بنت الزبير . رأيتها تطوف بالبيت فأذهلت عقلى . فو الله ما أبديت اليك ما بى حتى عيل صبرى . ولقد عرضت النوم على عينى فلم تقبله . والسلو عن قلبى فامتنع عنه . فأطال عبد الملك التعجب من ذلك . وقال ما كنت أقول إن الهوى يستأثر مثلك . قال (فإنى لأشد تعجبا منى .. الخ ..) ونظم الأمير خالد بن يزيد أبياتا من الشعر فى مناسبة زواجه برملة بنت الزبير بن العوام ومنها :

أليس يزيد السيرُ من كل ليلة   وفى كل يوم مِنْ أحبتنا قربا
أحِنّ إلى بنت الزبير وقد بدَت   بنا العيسُ خرقا فى تهامة أو نقبا
اذا نزلت أرضا تحبّب أهلها   إلينا ، وان كانت منازلها حَرْبا
وان نزلت ماء ـ وان كان قبلها   مليحاً ـ وجدنا ماءه باردا عذبا
تجول خلاَخِيلُ النساء ، ولا أرى ،   لرملة خلْخالاً يجول ولاَ قلبا
أحب بنى العوام طرًا لحبها   ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا
خليلىّ ما من ساعة تذْكرانها   من الدهر ، الا فرجت عنى الكربا

وعندما يئس خالد بن يزيد من الوصول إلى الخلافة ، اتجه إلى طلب العلم ، فنبغ فى هذا المجال . وقد اهتم فى بادئ الأمر بعلم الصنعة (علم الكيمياء) . فجلب العلماء من مصر ليترجموا العلوم الكيميائية والطبية من اليونانية والقبطية إلى اللغة العربية . فخالد بن يزيد ـ الذى عجزت بنو أمية أن تنجب مثله ـ أول من بدأ ترجمة العلوم البحتة والتطبيقية من لغات مختلفة إلى العربية ، ثم نقلت الدواوين من اللغة الفارسية إلى العربية فى أيام الحجاج . يقول ابن النديم فى كتابه (الفهرست) : كان خالد بن يزيد بن معاوية يسمى حكيم آل مروان ، وكان فاضلا فى نفسه ، وله همة ومحبة للعلوم . خطر بباله الصنعة . فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر ، وقد تفصح بالعربية ، وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى إلى العربى ، وهذا أول نقل كان فى الإسلام من لغة إلى لغة ، وأضاف محمد يحيى الهاشمى فى كتابه (الكيمياء فى التفكير الإسلامى) قوله : كان يعيش فى الإسكندرية راهب يدعى (ماريانوس) كان يشتغل فى الكيمياء ، وقد سمع به الأمير العربى خالد بن يزيد واستدعاه إلى دمشق ليتعلم منه الصنعة . وبعد أخذ ورد قَبِل هذا الراهب المجىء الى سورية ليعلم خالدا الكيمياء ، وقام بترجمة عدة كتب إلى اللغة العربية) .

يجب أن نأخذ من منهج حياة الأمير بن يزيد درسا نهتدى به فى حياتنا العملية : فهو لم يَقف مكتوف اليدين نائحا على موضوع الخلافة ، بل استمر فى حياته اليومية ، وبدأ يفكر فى طريق آخر يخلّد به اسمه فاختار العلم وجلب العلماء المتخصصين فى علمى الكيمياء والطب من مصر . فخالد ابن يزيد يعتبر عصاميا من الدرجة الأولى . ولقد صار من العلماء المولعين فى الأدب والعلوم والتاريخ ، حتى أصبح مضرب الأمثال فى اهتماماته العلمية فى عصر كانت الأمة الإسلامية مشغولة فى مشاكلها السياسية . يقول سعيد الديوه جى فى كتابه (خالد بن يزيد) يئس خالد من الخلافة ولكنه لم ييئس أن يخلد له ذكرا يفوق ذكر الذى اغتصبها منه حيا وميتا .

خالد بن يزيد أحد المولعين بالعلم والأدب .. كما نرى أنه كان له ميل طبيعى إلى العلوم والمعارف ، وأن ذكاءه المتوقد وحبه للعلوم المختلفة لم يقنع بما كان للعرب من العلوم فى ذلك الوقت ، وإنما سعى بالاطلاع على ما للأمم الأخرى من العلوم والمعارف المختلفة . ولم يكن يعرف غير العربية،ولكن كان فى الشام رهبان يعرفون اللغات الأجنبية ، وقد تعلموا اللغة العربية من الفاتحين ، كما أن مدرسة الاسكندرية كانت لم تزل موجودة ، وفيها علماء تعلموا اللغة العربية ، وفى استطاعتهم أن يترجموا كتب الأمم الأخرى . ويذكر الجاحظ فى كتابه (البيان والتبيين) كان خالد بن يزيد بن معاوية خطيبا شاعرا ، جيد الرأى أديبا كثير الأدب حكيما ، وكان أول من أعطى التراجمة والفلاسفة ، وقرب أهل الحكمة ورؤساء أهل كل صناعة ، وترجم كتب النجوم والطب والكيمياء والحروب والآداب والآلات والصناعات .

لقد اهتم خالد بن يزيد اهتماما بالغا ببعض فروع المعرفة كالكيمياء والطب والفلك . فأما اهتمامه بعلم الطب فلحاجة الشعب له : لأنه يخوض ويعالج بعض الأمراض التى تصيب أفراد الشعب ، فهذا الموضوع من أهم الموضوعات التى اعتنى بها علماء العرب والمسلمين بعد خالد ، وأما علم الكيمياء فهو العلم الوحيد الذى كان الاعتقاد بين الناس سائدا أنه يمكن بواسطته تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب وفضة . وكذلك يمكن صنع الأدوية باستعمال النظريات الكيميائية ، وهذه بطبيعة الحال حقيقة علمية خدمت علم الطب عبر القرون . وأخيرا اهتم بعلم الفلك ، لأن العرب عرفوا بالتجارة والرحلات إلى جميع أنحاء العالم ؛ لذا يحتاجون إلى الإلمام بحركة النجوم . يقول سعيد الديوه جى فى كتابه (الأمير خالد بن يزيد) : كانت صناعة الكيمياء رائجة فى مدرسة الاسكندرية ، فاستعان خالد بعلماء هذه المدرسة واستقدمهم إلى الشام ، وبذل لهم العطايا الكثيرة ليترجموا له الكتب ، ومن هؤلاء راهب اسمه « مريانوس » طلب منه أن يعلمه صناعة الكيمياء ، ولما تعلمها أمر بنقل الكتب التى تبحث عنها الى العربية ، فنقلها له راهب أخر اسمه « اسطيفانوس ».وكان مولعا بالنجوم ونقلت له الكتب التى تبحث عنها . ويظهر لنا أنه لم يكن يكتفى بدراسة هذ العلم دراسة نظرية ، ويقنع بالأقوال دون التطبيق : بل إنه كان يحاول أن يطبق ما يقرأ . تذاكروا الماء بحضرة عبد الملك ابن مروان بن الحكم فقال خالد : (إن شئت أعذبت لكم ماء البحر) فأتى بقلالى من ماء ثم وصف كيف يصنع به حتى يعذب .

ويذكر ابن خلكان فى كتابه (وفيات الأعيان) : ان خالد بن يزيد بن معاوية كان من كبار علماء قريش بفنون العلم ، وله إسهامات جليلة فى صنعة الكيمياء والطب ، كان ذا باع طويل فى هذين العلمين متقنا لهما ، وله رسائل ومؤلفات توضح بكل جلاء معرفته وبراعته .

وقد سخَّر خالد بن يزيد بن معاوية المال لخدمة العلم والعلماء : فكان حكيما فى تصرفاته ، ولذا لقب بحكيم بنى أمية . وكان يقرض الشعر ، وقد امتاز شعر خالد بن يزيد بخلوِّه من المجُون والفُحش والغزل العارى ، لذا يمكن القول بأنه شاعر حكيم وعرَّاف وملتزم بتعاليم الإسلام . يقول سعيد الديوه جى فى كتابه (الأمير خالد بن يزيد) : بل إن خالد بن يزيد سخَّر المال لتهذيب نفسه وتثقيف عقله ، وتخليد ذكره بين العلماء والأدباء والشعراء فهو من رجالات قريش المتميزين بالفصاحة والسماحة وقوة العارضة ، علأَمة خبيرٌ بالطب والكيمياء حكيمٌ شاعرٌ ، وقد علم العربَ والعجم . وهو بعيد كل البعد عن طيش الشباب ، ونزق الفتيان ، وانهماك المترفين ، ولهو المجّان . فهو يمثل النفس الأبية الطاهرة ، التى لا تشغلها ملذات الدنيا ونعيمها عن تخليد ذكرها ، وهو يحاسب نفسه على كل عمل يقوم به ، أو قول يصدر منه ، ، ولقد صدق من سماه : (حكيم بنى أمية) ..

ويظهر ورعه وزهده وتقاه جليًا من بعض أشعاره وأقواله ، التى نقلها سعيد الديوه جى فى كتابه (الأمير خالد بن يزيد) منها :وكان خالد بن يزيد يذكر الحساب والعقاب ، وأن كل نفس ستجد ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء ، ويحث على العمل الصالح لهذا اليوم العصيب :

إن سرك الشرف العظيم مع الغنى   وتكون يوم أشد خوف وائلا
يوم الحساب إذا النفوس تفاضلت   فى الوزن إذ غبط الأخف الأثقلا
فاعمل لما بعد الحياة ولا تكن   عن حظ نفسك فى حياتك غافلا

ومن أقواله المأثورة :

(١) إذا كان الرجل محاربا ، لجوجا معجبا برأيه ، فقد تمت خسارته .
(٢) وقيل لخالد : ما أقرب شىء ؟ قال : « الأجل » .
(٣)قيل له : ما أبعد شىء ؟ قال : «الأمل » .
(٤) قيل له : ما أوحش شىء ؟ قال: « الموت » .
(٥) قيل له : فما أنسب شىء ؟ قال : « الصاحب المواتى » .
(٦) قيل له : فما الدنيا ؟ قال : « ميراث » .
(٧) قيل له : فما الايام ؟ قال : « دول » .

كان خالد بن يزيد بن معاوية يصوم ثلاثة أيام من كل أسبوع فى آخر أيام حياته . كما أنه بنى جامع حمص المشهور وكان عدد العمال فى ذلك الوقت أربعمائة عبد ، فلما أنهوا بناء المسجد

اعتق العبيد لوجه الله سبحانه وتعالى . وفى آخر الأمر انقطع خالد بن يزيد عن الناس وانكب على القراءة والتصنيف .

ويلخص سعيد الديوه جى فى كتابه (الأمير خالد بن يزيد) هذا قائلا : كان خالد زاهدا تقيا يصوم الجمعة والسبت والأحد من كل أُسبوع .. كان كثير الحديث للناس عن صفوة الخلق الرسول ﷺ وقد أجمع المؤرخون على زهده ونقاوته وورعه ، وأنه وأخوه كانا من خيار القوم . ومن آثاره الجليلة أنه عمر جامع حمص وكان له (٤٠٠) عبد يعملون فيه . فلما انتهى عمار الجامع اعتقهم فى سبيل الله . لذا نجده يقضى آخر حياته فى بيته . منقطعا عن الناس . ولزم عبادة ربه . والتتبع والدراسة . فخلد له ذكرا يفوق ذكر الكثير من أبناء الذين حرموه من الخلافة . وأسندوها إلى من لا يمكن أن يقاس بحكيم آل أمية . الذى وضع أساس التدوين والترجمة للعرب . وأطلعهم على علوم ومعارف لا يعرفونها . وقد سئل : (كيف تركت الناس ولزمت بيتك ؟) قال : (هل بقى الاّ حاسد نعمة . أو شامت بنكبة ؟) .

ويعتبر خالد بن يزيد بن معاوية بحق من رُوّاد علماء العرب والمسلمين فى حقل الكيمياء . بل هو أول من قاد قافلة الكيميائيين العرب والمسلمين . كما أنه يعتبر أول من استعمل علم الكيمياء لصناعة بعض الأدوية لخدمة حقل الطب : لذا نجد أن علماء العرب والمسلمين أولوا هذا الفن العناية التامة . ولقد اشتهر خالد بن يزيد بين معاصريه بحنكته وسعة اطلاعه على معظم العلوم البحتة والتطبيقية . فهو اول من أُدخل علمى الطب والكيمياء والعلوم الأخرى اليونانية إلى العالم العربى .

يقول ابن النديم فى كتابه (الفهرست) : قال محمد بن اسحق : الذى عنى بإخراج كتب القدماء فى الصنعة خالد بن يزيد بن معاوية . وكان خطيبا شاعرا فصيحا حازما . ذا رأى . وهو أول من ترجم له كتب الطب والنجوم . وكتب الكيمياء . أما محمود الحاج قاسم فيقول فى كتابه (الموجز لما أضافه العرب فى الطب والعلوم المتعلقة به) وأن أول من قاد هذه القافلة من الكيميائيين العرب وأدخل الكيمياء والطب وبقية العلوم اليونانية إلى العالم العربى هو خالد بن يزيد بن معاوية .

كانت فكرة تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة كالذهب والفضة منتشرة بين العلماء آنذاك ولا شك أن خالد بن يزيد بن معاوية تأثر بهذه الفكرة الخلابة . وهى إمكانية تحويل مادة النحاس إلى ذهب . وقضى وقتا فى التفكير للوصول إليها . فطلب مجموعة من كبار العلماء فى حقل الكيمياء من مدرسة الاسكندرية راجيا أن ينجح مشروعه هذا .

يقول محمد فائز القصرى فى كتابه : (مظاهر الثقافة الاسلامية وأثرها فى الحضارة) : فقد استدعى الأمير خالد بن يزيد بن معاوية عددا من علماء الاسكندرية الى دمشق وأغدق عليهم المال وأحسن لهم مطالبهم . وكلفهم بالتجارب العلمية والترجمة للحصول على الذهب من مادة النحاس .

ويذكر أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه : (الأغانى) أن خالد بن يزيد بن معاوية قضى مدة طويلة من حياته فى طلب الكيمياء حتى أنه برز فى هذا الميدان . وقد امتدحه القاضى أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسى فى كتابه (طبقات الأمم) : أن خالد بن يزيد بن معاوية كان متضلعا فى حقلى الطب والكيمياء ، فهو أول من بين العلاقة المتينة بينهما ، ويتضح من إنتاجه فى هذا المجال أن له باعا طويلا . أما محمد ابراهيم الصيحى فيذكر فى كتابه (العلوم عند العرب) : أن خالد بن يزيد ابن معاوية كان من قادة الأوائل لعلم الكيمياء فهو الذى أمر بترجمة الكتب الأغريقية التى تناولت بعض الدراسات الكيميائية وعكف على دراستها والتعليق عليها حتى برع فى هذا الحقل .

مؤلفاته :

اهتم خالد فى آخر حياته بالتأليف فكتب كثيرا من الكتب والرسائل ، ذكر بعضها فى (الفهرست) لابن النديم ، و (كشف الظنون) لحاجى خليفة ، و (وفيات الأعيان) لابن خلكان ومنها :

(١) كتاب وصيته الى ابنه فى الصنعة .
(٢) كتاب الحرارات .
(٣) كتاب الصحيفة الكبير .
(٤) كتاب الصحيفة الصغير .
(٥) ثلاث رسائل فى الصنعة احتوت إحداها على ما جرى بينه وبين مريانوس .
(٦) السر البديع فى فلك الرمز المنبع .
(٧) منظومة فردوس الحكمة فى علم الكيمياء ويذكر صاحب كشف الظنون أن هذه المنظومة تحتوى على ثلاثمائة وخمسة عشر بيتا مطلعها :

الحمد لله العلى الفرد الواحد القهار رب الحمد
يا طالبا صناعة الحكماء خذ منطقا حقا بغير خفاء

(٨) وكتاب الرحمة فى الكيمياء(٤) .

ويروى لنا أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه (الأغانى) رواية طريفة تدل على تواضع الأمير خالد ابن يزيد المتميز وعقله الراجح : قابله راهب سأله : أأنت من أمة محمد ؟ ، فقال خالد : نعم ، فسأله الراهب : أمن علمائهم أم من جهالهم ؟ فقال خالد بن يزيد : لست من علمائهم أو جهالهم ، قال الراهب : ألستم تزعمون فى كتابكم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون ؟ فأجاب خالد : بأن لهذا مثلا فى الدنيا ، فسأل الراهب : فما هو ؟ قال خالد : مثل الصبى فى بطن أمه يأتيه رزق الرحمن بكرة

وعشيا لا يبول ولا يتغوط . فأدرك الراهب أنه يخاطب عالما وقال : ألم تزعم بأنك لست من علمائهم ؟! فأجابه خالد : بلى ما أنا من علمائهم ولا من جهالهم .

وخلاصة القول أن خالد بن يزيد بن معاوية ، كان بإمكانه أن يتولى الحكم ، ولكن بطريقة العنف التى يمكن أن تقود الى تفكك الدولة الإسلامية . فبحكمته ترك الحكم وانصرف إلى طلب العلم ؛ حيث خلد اسمه بين من أسس العلوم التطبيقية فى العالم العربى والإسلامى . ويعده كثير من المؤرخين من عباقرة العالم الاسلامى ، بل من الذين وضعوا النظريات الهامة ، والإضافات المبتكرة فى حقلى الطب والكيمياء ، فهو اول من جلب العلماء غير المسلمين من مدرسة الاسكندرية التى كانت عامرة بكبار العلماء من يونان وأقباط . فلم يجعل الاختلاف فى العقيدة حائلا بينه وبينهم ، بل قربهم منه واستفاد من خبرتهم العظيمة بالترجمة من اللغات المختلفة إلى لغة القرآن الكريم . فصار خالد بن يزيد ـ رحمه الله ـ يتتلمذ على الكتب المترجمة ، لأنه لا يجيد لغات أجنبية .

خالد بن يزيد بن معاوية هو الذى جعل علم الكيمياء علما ذا أهمية كبرى ، حيث طوره وجعل منه مصدرا لصناعة العقاقير ، والاعتقاد بإمكانية تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب وفضة . لذا نجد أن كثيرا من العلماء فى العالم الإسلامى تحمسوا لهذا الحقل حتى صار مصدرا للعلم التجريبى . ولقد ترعرع المنهج العلمى على أيدى علماء العرب والمسلمين الذين اهتموا بالعلوم التطبيقية مثل الكيمياء والفيزياء والفلك وغيرها . وقد انعقد إجماع مؤرخى العلوم ، على أن خالد بن يزيد بن معاوية يعتبر بحق من نوابغ الكيميائيين العرب . إذا أخذنا بعين الاعتبار الظروف التى كانت محيطة به . فالأمير خالد بن يزيد بن معاوية من حكماء الرأى ، كان حكيما كيمائيا ، ذا اخلاق ممتازة ، وبعد نظر عجيب ،ولقد احسن صنعا فى نهج طريق العلم بدلا من الحكم . لأن الأمة الإسلامية آنذاك كانت فى أشد الحاجة الى الاستفادة من المصادر اليونانية والفارسية والهندية والقبطية والعبرية وغيرها .

لم يهمل خالد بن يزيد الجانب الأدبى والاسلامى ، وتعزى فصاحته إلى حفظه القرآن الكريم ، وقد كان من الذين يقضون معظم وقتهم فى الإرشاد والتذكير بصفوة الخلق الرسول ﷺ حتى أنه فى بعض الأحيان كان يجمع خدمه فى بيته ويتلو عليهم القرآن الكريم ويفسره لهم ويقرأ بعض أحاديث الرسول ﷺ .

كان خالد بن يزيد بن معاوية فصيح اللسان ، صاحب فكرة ، قوى الشخصية منذ نعومة أظفاره . كان مصدرا للنصح والإرشاد لبنى أمية . ولذا حق أن يلقب بحكيم بنى أمية . ويذكر ياقوت الحموى فى كتابه (معجم البلدان) : أن خالد بن يزيد بن معاوية يعد من رجال قريش الأفذاذ الذين اشتهروا بالفصاحة واللين والورع .

لقد أجمع المؤرخون فى حقل العلوم التطبيقية فى العالم : أن الأمير خالد بن يزيد بن معاوية هو أول من بدأ الحركة العلمية بين العرب والمسلمين . يقول فاضل أحمد الطائى فى كتابه (أعلام العرب فى الكيمياء) : لقد أجمعت المصادر المتوفرة لدينا على أن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ، رائد العرب والإسلام فى الكيمياء ، وكان أول من أمر بترجمة التراث اليونانى إلى اللغة العربية ، إضافة إلى تعريب ما نقل من اليونانية الى القبطية ، ويعتبر بحق الرائد الأول فى نقل العلوم إلى اللغة العربية ، وبذلك وفر العلم لمن أراد ارتشافه من العرب والمسلمين الذين يحسنون اللغة العربية ، وبعد أن قرأ العلم بإمعان ، شغف بعلم الكيمياء بالدرجة الأولى ، وبالعلوم الأخرى بصورة عامة .

○ ○ ○

• الهوامش •

(١) الخرق : الفلاة الواسعة .
(٢) النقب : الطريق فى الجبل .
(٣) القلب : سوار المرأة .
(٤) ذكرت بعض المصادر أن هذا الكتاب لجابر بن حيان .

المراجع :

(١) ابن النديم : الفهرست .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان .
(٣) صاعد الأندلسى : طبقات الأمم .
(٤) ياقوت الحموى : معجم البلدان .
(٥) الجاحظ : البيان والتبيين .
(٦) حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون .
(٧) أحمد الدمرداش : تاريخ العلوم عند العرب .
(٨) سعيد الديوه جى : الأمير خالد بن يزيد .
(٩) فاضل أحمد الطائى : أعلام العرب فى الكيمياء .
(١٠) محمود الحاج قاسم : الموجز لما أضافه العرب فى الطب والعلوم المتعلقة .
(١١) محمد فائز القصرى : مظاهر الثقافة الإسلامية وأثرها فى الحضارة .
(١٢) محمد ابراهيم الصيحى : العلوم عند العرب .